كتب صدرت حديثاً

الصهيونية والصراع الطبقي

تأليف

الدكتور صادق جلال العظم

بالرغم من معاناة شعبنا ومنطقتنا من نتائج تفاقم المسالة اليهودية ، الا ان الفكر السياسي الذي ساد ، في كافة مراحل تطور مشرقنا العربي — منذ اواخر القرن التاسع عشر — ظل مفتقرا الى تحليل علمي جاد ، وفهم تاريخي حقيقي لطبيعة المسالة اليهودية ومقوماتها .

فقد ظل الفكر السياسي العربي ، خلال مراحله المختلفة أسير نظرتين خاطئتين ، في فهمه للمسالة اليهودية :

وثيقة تاريخية هامة تكشف بأسلوب علمي يعتمد على التحليل الطبقي ، المقومات الرئيسية للحركة الصهيونية

١ — نظرة سلفية تقليدية ، والتي رأت في المسالة اليهودية مجرد صراع ديني معقد بين ثلاثةاطراف : اليهودية والمسيحية والاسلام .

٢ — نظرة ايديولوجية مثالية، نشرتها البورجوازية الاوروبية حول المسالة اليهودية وحول اللاسامية حيث نقلتها الى معظم الشعوب التي وقعت تحت استعمارها .

وفي مواجهة هاتين النظرتين ، المثالية والعنصرية، أخذ المنهج المادي التاريخي في فهم المسالة اليهودية يمارس تأثيره القوي في الفكر السياسي العربي المعاصر استنادا الى الحقيقة التي اوضحها ماركس، بأن ما كان يبدو على انه مجرد صراع ديني فوقي بين اليهودية والدول المسيحية مثلا هو في حقيقته ليس الا صراعا بين قوى اجتماعية « علمانية » تتخفى تحت عباءة دينية ، لاسباب تتعلق بطبيعة الظروف التاريخية المحيطة بالصراع وبآليته ، وأساليب التعبير عنه ، والتعبئة له في مرحلة معينة .

والكتاب الذي بين ايدينا ، يعد بحق وثيقة تاريخية هامة تكشف عن المقومات الرئيسية للحركة الصهيونية ، بأسلوب علمي يعتمد على التحليل الطبقي والمستند الى الوثائق الثابتة الدامغة ،

وقد تناول المؤلف موضوع الكتاب تحت اربعة أبواب رئيسية :

- الطابع التاريخي للمسالة اليهودية .
- النشأ الامبريالي للمشروع الصهيوني .
- الصهيونية — اليهودية .
- الحركة الصهيونية .

الطابع التاريخي للمسالة اليهودية :

من خلال عرض تاريخي ، يرتكز على الاسلوب الماركسي في البحث — مبتعدا عن النزعة المثالية والداعية الى ارجاع المسالة اليهودية الى الروابط المعنوية والدينية — يبحث المؤلف عن عناصر وعوامل المسالة من خلال الدور الاقتصادي والاجتماعي التي قامت به الجماعات اليهودية داخل المجتمعات المختلفة التي عاشت فيها عبر العصور التاريخية المختلفة .

ويؤكد المؤلف — من خلال هذا الاسلوب — على حقيقة تاريخية هامة ، سبق وان اشار اليها ماركس ، الا وهي انتشار اليهود في جميع انحاء العالم القديم (كالامبراطورية الرومانية على سبيل المثال) وتعاطي شرائح اجتماعية هامة منهم العمل التجاري والربا ، وكانت تلتف حول هذه الشرائح فئات اجتماعية متنوعة تعتاش من هذا النشاط التجاري ، وتستفيد منه .

وعند حلول القرن التاسع عشر ، في اوروبا ، فقد كانت الاعمال والحرف التي مارسها اليهود واعتاشوا منها ، في اغلب الاحيان ، مرتبطة بصورة مباشرة او غير مباشرة بالتجارة والتبادل السلعي اللذين تهيمن عليهما الشرائح الاجتماعية العليا من الجاليات اليهودية ، وهي الاقلية بالطبع .

ومع مرور الزمن تراكم الرأسمال بين ايدي اليهود ، وذلك نتيجة لتمثيل اليهود للرأسمال البضاعي والرأسمال الربوي ومصالحه ، بسبب الارتباط العضوي بين الرأسماليين .

وقد ادى بروز البورجوازيات التجارية المحلية في اوروبا الغربية ، الى صراع دام ضد ممثلي الرأسمال البضاعي القديم ، حيث شعرت هذه الطبقة الصاعدة ، ان السيطرة التقليدية على التجارة واحتكارها من قبل اليهود ، وكانت تشكل احدى العقبات الرئيسية في وجه نموها وتوسعها .

ويضيف المؤلف موضحا (لقد دخل الرأسمال البضاعي في صراع تناحري خاسر مع الرأسمال التجاري الصاعد ، الذي كان يعتمد على الصناعات المزدهرة في المدن لتزويده بالسلع والبضائع للمتاجرة بها) .

وكان من نتائج هذا التبدل ، كما يقول المؤلف : (ميل كفة الصراع بين الرأسمال التجاري من جهة والرأسمال البضاعي والربوي اليهودي من جهة ثانية ، لصالح الاول بصورة حاسمة) .

ولكن ، ما هي النتائج التي تركها هذا الصراع على الجاليات اليهودية وعلى نمط حياتها وعملها ؟

١ — النزوح التدريجي لقطاعات واسعة من اليهود الى شرقي اوروبا ، اي تمركزهم في المناطق الاكثر خضوعا لنمط الانتاج الاقطاعي ، حيث ما تزال هناك فرصة متاحة للرأسمال البضاعي والربوي لممارسة دوره .

٢ — اتجاه قطاع من اليهود الى التمركز في ميدان الربا ، اي اخذ رأسمالهم يفقد طابعه التجاري ، ويصبح رأسمالا ربويا خالصا .

٣ — اتجاه قطاع اخر الى الاندماج في النظام الرأسمالي والدخول بشكل او بآخر في صفوف طبقته السائدة والمشاركة في صنعه وتطويره ، وشكل هذا القطاع نواة الطبقة البورجوازية اليهودية في بلدان اوروبا الغربية .

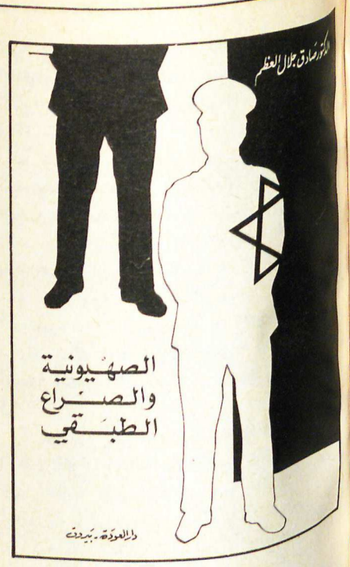

ويوضح المؤلف ذلك بقوله : (وبصورة عامة يمكننا القول انه مع مجيء القرن التاسع عشر ، كانت الشرائح العليا من البورجوازية اليهودية منصهرة بصورة طبيعية في الطبقة الرأسمالية الحاكمة في بلدان اوروبا الغربية والولايات المتحدة ، كما كانت الشرائح الادنى والافقر منها مندمجة ايضا ، ولكن بنسبة اقل في البنيان الطبقي للمجتمعات التي تعيش فيها) .

وقد عبرت البورجوازية اليهودية الجديدة عن تحالفها مع النظام الرأسمالي ، وعن اندماجها في طبقاته المتعددة منها :

● على الصعيد الاقتصادي اتجهت الشرائح العليا للبورجوازية اليهودية نحو اخذ حجمها الطبيعي داخل عالم البورجوازيات الاوروبية المسيطرة، ثم لعب بارزة بروزا خاصا في عالم المال كما كانت في السابق، وبعد ان انشات البورجوازيات الحاكمة الكبرى التابعة لدولها ، اصبحت المصارف اليهودية، تبدو متواضعة في حجمها في ظل المؤسسات المالكة الاخرى .

● اما على الصعيد الاجتماعي ، فقد ازداد اليهود البورجوازيين الذين تخلوا عن دينهم والمتحولوا المسيحية ، خاصة في صفوف الانتليجنسيا العاملين في المهن الحرة والتي دخلها اليهود بكثافة كبيرة .

● وعلى الصعيد الثقافي والحضاري ، انتجت البورجوازية اليهودية الجديدة وقادت حركة «الهيسكالا» اي عصر التنوير اليهودي ، حيث حاولت ان تحقق منجزات حديثة وليبرالية وثورية في المجالات الثقافية والحضارية شبيهة بالخطوات التي حققتها بورجوازية اوروبا الغربية .

● اما على الصعيد السياسي فقد اعطت البورجوازية اليهودية ولاءها الكلي للحركات القومية في البلدان الموجودة فيها ، واعتبرت ذلك جزءا من عملية اتمام تحررها الاجتماعي العام .

وفي اوروبا الشرقية حملت البورجوازيات المحلية، بالتحالف مع الامراء الاقطاعيين ، لواء معاداة السامية ، باعتبارها انعكاس ايديولوجي وسياسي فوقي لاندفاعها المادي باتجاه توسيع اعمالها لتشمل اكبر رقعة من البلاد ، ونحو الاستيلاء على كافة القطاعات الاقتصادية والنشاطات التجارية والمهيمنة عليها نهائيا بعد التخلص من السيطرة اليهودية التقليدية عليها .

اما البورجوازية اليهودية المندمجة في اوساط الطبقات الحاكمة في اوروبا الغربية واميركا ، فقد تضايقت من الهجرة اليهودية الاتية من اوروبا الشرقية ، ومن انبعاث الحركات المعادية للسامية وانتشارها ، وذلك خوفا على مواقعها الاقتصادية ومركزها الاجتماعي . وقد قامت عناصر يهودية مهمة، بدعم قوانين الحد من الهجرة التي سنتها حكومات الدول الاوروبية الغربية واميركا ، والتي استهدفت اليهود المشردين والمعدمين ، كما تجاوبت بقوة ولهفة مع المشاريع الاستعمارية الاستيطانية للتخلص من « المسالة اليهودية » وبذلت جهودا حثيثة لانجاحها.

المنشأ الامبريالي للمشروع الصهيوني

اذا اردنا ان نحدد الاسس المادية والطبقية والاجتماعية التي انطلق منها المشروع الصهيوني ، انطلاقاته الاولى ، علينا ان نبحث عنها في الاوساط التي كانت وقتئذ مؤهلة تاريخيا وموضوعيا لافراز مثل هذه المشاريع لان لها مصالح حيوية في العمل الطويل على تحقيقها ، اي الطبقات البورجوازية الحاكمة في دول اوروبا الغربية ، والتي كانت منهمكة في بناء الدولة الرأسمالية الحديثة على الاسس القومية المعروفة ، وعلى اساس التوسع التجاري والعسكري المستمر خارج القارة الاوروبية، والسيطرة الاستعمارية المتعددة الاشكال على اراضي القارات الاخرى ، والتنافس التناحري المستمر فيما بينها في ابتداع سياسات امبريالية تهدف الى بناء الامبراطوريات واقتناء المستعمرات والهيمنة على مسالك التجارة الحيوية العالمية .

وقد اطلق المؤرخون اسم « الصهيونية الامية » او « صهيونية الاغيار » على ظاهرة اهتمام فئات معينة من المسيحيين في اوروبا الغربية — خاصة انجلترا — بعودة اليهود الى فلسطين ، ولم تكن « صهيونية الاغيار » هذه حليفا مستقلا للقوى الامبريالية ، بل كانت جزءا لا ينجزأ منها ، واداة رئيسية من ادواتها ، وهناك ادلة تاريخيه متعددة تشير الى ذلك ، منها :

١ — طرح البورجوازيون الانكليز ، احد اوائل المشروعات الصهيونية المعروفة في تاريخ اوروبا الحديث وذلك عندما قام اثنان منهم ، والمقيمان في ذلك الوقت في امستردام ، برفع عريضة الى حكومتهم تطالب بالسماح بعودة اليهود الى بريطانيا، وببذل جهد مشترك مع هولنده لاعادة توطين اليهود في فلسطين .

٢ — اصدار نابليون ، اثناء المراحل الاولى من حصاره لمدينة عكا ، نداء دعا فيه يهود اسيا وافريقيا لتاييده والانضمام الى جانبه مقابل وعد قطعه على نفسه « باسترجاع القدس القديمة وممتلكاتها المجيدة » ، وقد خاطب النداء النابليوني المذكور اليهود بتسميتهم « الورثة الشرعيين لفلسطين » .

٣ — كان افضل من مثل الاهتمام الانكليزي بالمشروع الصهيوني ، في تلك الفترة ، رجل الدولة والسياسي الشهير « بالمرستون » والذي كان رئيسا للوزراء ، ثم وزيرا للخارجية لفترة طويلة ، واللورد « شافتسبوري » حيث كانا يخططان الى دفع المشروع الصهيوني لاستيطان فلسطين الى الامام ، وكان الاخير يرى ان توطين اليهود في « الارض المقدسة » يشكل اقل الاساليب كلفة واكثرها ضمانا لاستعمار سوريا من قبل بريطانيا ، وكان يعتقد ايضا ان « العالم المتحضر » كله سيفيد من النتائج المترتبة على عملية الاستعمار هذه .

ومن خلال مجمل الوقائع التاريخية يتبين لنا بجلاء ان المشروع الصهيوني استكمل عناصره الاساسية وبرنامج عمله المبدئي (استعمار فلسطين، انشاء دولة يهودية فيها، اجلاء الشعب الفلسطيني، خدمة المصالح الامبريالية السائدة في الشرق وحمايتها .....) خارج الاوساط اليهودية في مرحلة مبكرة سابقة على المرحلة التي شهدت بروز اهتمام البورجوازية اليهودية الغربية الجاد والعملي به .

الصهيونية اليهودية

لم تبدأ اوساط من البورجوازية اليهودية بابداء استجابات اولية للمشروع الصهيوني ، بشكل جدي من ناحية ، وبالتحرك العفوي من قبلها باتجاه الاهتمام بالاستيطان في فلسطين من ناحية ثانية ، حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، خاصة في بداية ستيناته ، حين بدأت موجة جديدة من التوسع الامبريالي — الكولونيالي تجتاح الدول الرأسمالية الرئيسية استمرت حتى نهاية القرن .

لقد بين لينين في كتابه الشهير « الامبريالية اعلى مراحل الرأسمالية » ان ظاهرة التوسع الامبريالي المذكورة ترجع بصورة رئيسية الى انتقال الرأسمال تدريجيا الى مرحلة اندماج الرأسمال المصرفي بالرأسمال الصناعي ، وتقدم الرأسمال المالي الاحتكاري لاحتلال مواقع الصدارة المطلقة والسيطرة على بقية الانواع من رؤوس الاموال .

ولعل اهم النتائج التي افرزها انتقال الرأسمالية الى هذه المرحلة كانت :

● التنافس الامبريالي الضاري بين الرأسماليات الاحتكارية على اقتناء المستعمرات والسيطرة على الاسواق ومصادر الثروات ومواد الخام فيها .